منه إلى العام[1]، لذا عيب عليها أن أفقها لم يتجاوز الوحدات الجزئية، أو أنها كانت تميّز بين الجزئي والكلي بمقتضى المنطق والإقناع[2] في حين أن البلاغة الحديثة ليس لها حاجة دائمة إلى حدّة هذا التمييز.

II البلاغة الجديدة والخطاب:

ولد مصطلح البلاغة الجديدة عام 1958م في عنوان أحد الكتب الشهيرة التي وضعها المفكر البولوني المولد البلجيكي المقام «بريلمان شارل» (Perelman Charles) تحت اسم «مقال في البرهان: البلاغة الجديدة» يعتمد هذا الكتاب على محاولة لإعادة تأسيس البرهان أو المحاجّة الاستدلالية باعتباره تحديدا منطقيا بالمفهوم الواسع كتقنية خاصّة ومتميّزة لدراسة المنطق التشريعي والقضائي على وجه التحديد، وامتداداته إلى بقية مجالات الخطاب المعاصر[3].

هذا عن مدرسة «بروكسل» البلجيكية، أما عن الشكلانية الروسية، فإنه يلاحظ عموما على مبادئها أنها تدور حول وظيفة اللّغة التواصلية، وأنّها ليست منبتة الصلة بالتقاليد البلاغية الكلاسيكية، هي اعتبار أن منظر الخطاب البرهاني يهتم بدوره بالأشكال البلاغية كأدوات أسلوبية ووسائل للإقناع والبرهان[4].

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، د.صلاح فضل، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 164، 1992، ص: 133.

2)- اللّغة والتفسير والتواصل، ص: 129.

3)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 73.

4)- بلاغة الخطاب وعلم النفس، ص: 73.

وإذا كانت مدرسة بروكسل والمدرسة الروسية تمثلان التيـــار الأول في البلاغة الجديدة، فهناك تيار ثان نشأ في الستينات، يرى الباحثون بأنه يعمـــل في الاتجاه المضاد للتيار الأوّل وقد ولدت بلاغة هذا التيار في حضن البنيويـــة النقدية ذات النزوع الشكلاني الواضح، تتمثل حدّتها في أنها تقوم في مقابـــل التقاليد المدرسية للبلاغة الفيلولوجية، ويمثلها جماعة ممّن أطلق عليهم البلاغيون الجدد، معظمهم في فرنـــسا مثـــل: «جيرارجنيـــت» و«جـــان كـــوهين» و«تودوروف» و«جماعة.م» أو «جماعة ليجا»، كما يطلق عليهـــا أحيانـــا يلتقون في كثير من مبادئهم وإنجازهم بمثل الدراسات المجازيـــة واللّغويـــة في الثقافة الانجليزية والأمريكية على اختلاف في المناهج والغايات[1].

وبالإضافة إلى التيارين السابقين هناك اتجاه ثالث مجاوز للتيـــار الثـــاني، ومعتمد على السيميولوجيا من ناحية، والتداولية من ناحية أخرى، وقد تحول إليه في نهاية السبعينات بعض أنصار التيار الثاني أمثال «تودوروف» الـــذي اعترف عام 1979 بأن السيميولوجيا يمكن أن تفهم باعتبارها بلاغة معاصرة، وقد اتضح بعد هذا أنّ مفهوم بلاغة الخطاب مرهون بالاعتداد بها كعلم لكل أنواع الخطاب، علم عالمي في موضوعه ومنهجه، مهما اختلفت الأسماء الـــتي تطلق عليه[2].

1)- المرجع نفسه، ص: 73- 74.

2)- Del Formalis ma a la neoretoria, Pozuelo, y vancos, Jose Maria, Madrid, 1988, P: 189

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 74.

II–1– بلاغة البرهان عند «بيريلمان»:

يرى «بيريلمان» أن نظرية المحاجّة لا يمكن أن تنمـــو إذا تـــصوّرنا أنّ الدليل البرهاني، إنّما هو مجرّد صيغة مبسّطة بديهية ولذلك فإن هدف «نظرية البرهان» (Théorie de l'argumentation) هو دراسة تقنيات الخطاب التي تسمح بإثارة تأييد الأشخاص للفروض التي تقدّم لهم، أو تعزيز هذا التأييـــد على تنوع كثافته[1].

يقول «بيريلمان» في تحديد موضوعه: «إذا كانت القرون الثلاثة الأخيرة قد شهدت أعمالا كبرى تدور حول المشكلات الفلسفية والإيديولوجيـــة، واتّسم هذا القرن الأخير بازدهار الدعاية والإعلان، فإن المناطقة المحدثين قـــد أغفلوا هذا الجانب، ممّا يجعل نظريتنا تقترب مرّة أخرى مبدئيا من شـــواغل عصر النهضة، ولذا فإننا نقدمها باعتبارها بلاغة جديدة...»[2].

ويبدو جليا أن مقاربة «بيريلمان» البلاغية تهدف إلى إبراز حقيقة هامّة، وهي أن كلّ محاجّة تنمو بالنظر إلى مستمعين، في حـــين رأى الأقـــدمون أن الفكر الجدلي موازٍ للفكر التحليلي، لذا يرى بيريلمان أنّ بحوثه تتجاوز بزمن طويل بلاغة الأقدمين[3].

فبالنسبة للأقدمين «كان هدف البلاغة قبل كل شيء هو «فن الكـــلام المقنع للجمهور»، فهي تتصل إذن، باستخدام لغة التكلّم بالخطب التي تلقـــى

1)– بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 74.

2)– Treate de l'argumentation- la nouvelle rhétorique Perelman, Ch. Oubseches- Tytica Trad- Madrid- 1989- P:36.

3)– بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 75.

في الميادين العامّة أمام حشود من الناس، وتستهدف الحصول على تأييدهم للأطروحات المقدمة ومع أنّ هذا هو نفسه هدف كل محاجّة برهانية، فليس هناك ما يحمل الباحث على أن يقصر دراسته على العرض الشفهي للبراهين، ولا أن يحصرها في الجماهير المحتشدة في الميادين»[1].

وبالإضافة إلى هذا -يرى بيريلمان» أنّ «رفض الشرط الأوّل المتمثل في عدم حصر الدراسة على العرض الشفهي للبراهين يعود إلى الشواغل التي تحرّك المناطقة لفهم عمليات الفكر وآلياته، بعيدا عن اهتمامات من يعنون بتكوين النواب والخطباء والممثلين، وإذا كان صحيحا أن تقنية الخطب الجماهيرية تختلف عن المحاجّة المكتوبة فإنّه نظرا لأهمية الدور الحديث للطباعة، فإنّ هذا الاتجاه يعنى في المقام الأوّل بالنصوص المكتوبة، ممّا يجعله يغفل دراسة طرق الأداء وتقنيات الحركة والإشارة، لأنّ هذه المشكلات تتّصل بوظيفة معاهد الفنون الدرامية ومدارس الإلقاء والتمثيل»[2].

وإذا كان لابدّ من الاحتفاظ بشيء من البلاغة التقليدية حسب رأي الباحث، فإنّه ينبغي الاحتفاظ بفكرة المستمعين التي تنبثق مباشرة من فهم طبيعة الخطاب، فكل قول يوجّه إلى مستمع، وكثيرا ما ننسى أنّ الشيء ذاته يحدث بالنّسبة لكل مكتوب، وبينما نتصوّر الخطاب بالنظر إلى مستمعين، فإنّ غياب القراء ماديا ربّما يجعل الكاتب يظنّ بأنّه وحده في هذا العالم، بالرّغم من أنّ نصّه في الواقع مشروط دائما بهؤلاء الذين يتوجّه إليهم واعيا أو بشكل غير واعٍ[3].

---

1)- Treate de l'argumentation, P: 36.

2)- Ibid, P: 36.

3)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 76.

II–1–1– كيف يكون الخطيب فعّالا ومؤثّرا من منظور «بيريلمان»:

عرفنا أن البلاغة عند الأقدمين هي دراسة التقنيات التي يستخدمها عامّة الخطباء للوصول بأسرع ما يمكن إلى النتائج المستهدفة وتكوين الآراء دون الاجتهاد في التمحيص الحاد، غير أن لـ«بيريلمان» وجهة نظر أخرى تتمثل في أنّ «البحث في البرهان لا يمكن أن يقتصر على ما يناسب هذا الجمهور الجاهل، وإذا كان الخطيب مضطرّا –لكي يكون فعالا ومؤثرا– أن يتكيّف مع الجمهور، فإنّ ما يترتب على ذلك هو أنّ أفضل الخطب ليست بالضرورة هي التي تقنع المفكرين. ومن هنا تنبع أهمية تحليل الحجج البرهانية فلسفيا، وهي ذات طابع عقلي أساسا، لأنها تتوجه إلى قراء لا يخضعون للإيحاءات والضغوط والمصالح والأهواء»[1].

وبعد ذلك يعلمنا الباحث أنه عندما يتضح لنا أنّ هذه التقنيات البرهانية تبدو على كل المسويات –سواء كان الأمر يتعلق بنقاش عائلي، أو بحوار جدلي في وسط مهني متخصّص أو بمحاجّة إيديولوجية– وإذا كانت نوعية المستمعين الذين يؤيدون بعض البراهين في مجالات التخصّص الدقيق هي ضمان قيمتها، فإن أبنية البراهين المستخدمة في المناقشات اليومية هي التي تجعلنا ندرك سبب وكيفية فهمها»[2].

ومن منظور المناطقة والفلاسفة أن ما يميّز البلاغة الجديدة هو أنّها «منطقيّة» لا «تجريبيّة»، فنظرية البرهان التي تهدف إلى بحث سبل التأثير عبر الخطاب بشكل فعّال في الأشخاص، كان يمكن أن تدرس كفرع من علم

1)– Treate de l'argumentation- P: 39.

2)– Treate de l'argumentation- P: 39.

النفس، وعندئذ تتحول إلى موضوع يتّصل بعلم النفس التجريبي، حيث نضع موضع الاختبار مختلف البراهين أمام مجموعات متنوعة من المتلقين الذين يتم اختيارهم بطريقة منظّمة، كي نستطيع استخلاص بعض النتائج الهامّة من هذه التجارب[1].

غير أننا نلاحظ أن موقف الفيلسوف المنطقي يختلف عن موقف عالم النفس، فالبون شاسع جدّا لأنّه لا يمكن لمنهج المعمل أن يحدّد قيمة الحجج المستخدمة في العلوم الإنسانية؛ لذا يصرح بيريلمان بأنّه يستلهم عمل المناطقة، ويتّخذ مناهجهم التي أعطت ثماراً جيّدة منذ قرن تقريبا[2].

وهو يعلن عن تصريحه هذا بقوله: «إنّ المنطق قد استطاع أن يظفر بدفعة، قوية منذ منتصف القرن الماضي، عندما كفّ عن تكرار الأشكال القديمة، وأخذ في تحليل أدوات البرهان التي يستخدمها الرياضيون بالفعل. فالمنطق الشكلي الحديث قد تأسّس باعتباره دراسة لوسائل البرهان الرياضي، لكن مجاله ظلّ محدوداً، ممّا يدفع المناطقة إلى استكماله بنظرية برهانية، وهذا ما نهدف إلى وصفه عبر تحليل أدوات الاستدلال الملائمة للعلوم الإنسانية»[3].

ونحن لذلك، كثيرا ما يكفي أن نصف خطاباً بأنّه «بليغ» لكي نسلبه فعاليته. إنّ كثيرا من كتب البلاغة والخطابة التي تعدّد إجراءات الإقناع توصف بأنها مصطنعة أو شكلية أو لفظية، ولهذا نجدنا كما يقول «بيريلمان» حيال هذه المجموعة من الثنائيات المتعادلة.

طبيعي ، مضمون ، واقع
↓ ↓ ↓
اصطناعي ، شكل ، لفظ

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 76.

2)- المرجع نفسه، ص: 77.

3)- Treate de l'argumentation- P: 41.

هذا التدني في قيم الخطاب التأملي الذي يتم تلقيه باعتباره إجراءاً يجعلنا نفضل الخطاب العفوي غير المعد مهما كانت نواقصه[1].

وتساوقا مع هذا يرى «بيريلمان» أنّ الإجراء هو طريقة العمل من أجل الوصول إلى نتيجة بين إجراءين إحداهما طبيعي، والآخر مفتعل (مصطنع)، فكثيرا ما تكون الدموع الكاذبة لاستدرار العطف، والمجاملة (المدح) بغرض العطاء أو النفاق لما للفظ من سحر كما سبق الذكر.

II–1–2: موقف المتلقي إزاء الخطيب:

يتم تلقي الخطاب باعتباره إجراءاً عندما لا نشعر بأنّه منبثق من موضوعه، فالمستمع عندما يتجاوب مع الخطيب في احترام القيم الممجّدة والإعجاب بها، يندر أن يحكم عليه باعتباره مستخدم إجراء بليغ، لكن من لا تعنيهم هذه القيم لا يرونه بنفس الطريقة، وكثيراً ما يعلّق المستمعون «إنّها مجرّد كلمات» لإدانة الآخرين لما يبدو في خطابهم من فراغ وخلوّ من القيم التي يعتدّون بها، كما يمكن أيضا أن نشعر بهذا الانطباع، وبأنّنا حيال إجراءات بلاغية في حالة الاتفاق على القيم عندما يبدو أن الخطيب يتّخذ قواعد وتقنيات لا تتوافق بشكل طبيعي مع الموضوع لشدّة أناقتها واتّساقها[2].

II–1–3–كيف نتفادى وسم الخطاب بأنه مجرّد إجراء؟

يرى صلاح فضل، أنّه يمكننا الوصول إلى هذا الهدف بتأكيد أن الخطاب نتيجة الواقع، وأيضا بمجموعة من التقنيات التي تؤدّي إلى تفادي إثارة الانفصام بين الشكل والمضمون، مع ضمان عدم إمكانيته على أن الطريق

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 79.

2)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 79.

الصائب لذلك، هو ملاءمة الأسلوب للموضوع، كما يتصوّره المستمع أو المتلقي بصفة عامّة، فالملاءمة كثيرا ما تؤدي إلى تفادي هذا الانفصام، وتقوم العناصر التي يمكن تأويلها بأنها علامات على العفوية بدور فعال في تلاؤم الأسلوب مع الواقع وزيادة درجة الاقتناع به[1].

وينتهي «بيريلمان» إلى نتيجة مفادها إنّه لا يوجد أدب بدون بلاغة على أن نفهم من هذا المصطلح فن التعبير، لكن أدوات هذا الفن تفقد فعاليتها بقدر ما يتم تلقيها باعتبارها مجرّد إجراءات بلاغية، فالقيمة البرهانية لا تتعرّض للإهدار ما دام منتج الخطاب يعطي إيحاءاً قويّا عن نفسه وعن الأشياء، ويقدم لهما صورة لا تحمل المستمع على الفصل بين الإجراء والواقع، وقد تكون علامات الارتباك والصدق مفيدة لتفادي هذا الفصل، وكل مظاهر النقص التي تبدو ضارة للوهلة الأولى بالنسبة للتأثير البرهاني، يمكن أن تصبح مفيدة له، وفي مقدمتها دلائل الارتجال والعفوية الصلاّقة[2].

ويبدو أن مبادئ هذه المدرسة تسهم بشكل فعّال في الحدّ من غلواء التحليلات الشكلية، وتشير إلى ضرورة الاهتمام بالوظيفة على المدى البعيد في الخطاب برمّته.

ومن خلال برنامج «بيريلمان» البرهاني نقف عند فكرتين محورتين لعلاقتهما الوثيقة بالفروض التفسيرية لفهم أهم الأشكال الأدبية، ولما لهما من أهمية في توضيح معالم هذه البلاغة الجديدة، أولهما: فكرة القياس (Analogie) ودوره في الأبنية البرهانية.

1)- المرجع نفسه، ص: 79- 80.

2)- Treate de l'argumentation, P. 688.

فالقياس عند «بيريلمان» يعدّ نقلا للبنية والقيمة معاً على أساس التفاعل الذي ينجم عن الرّبط بين المقيس والمقيس عليه، وإن كان يؤثر بشكل أوضح عل المقيس، فإنّه يؤثر أيضا على المقيس عليه، هذا التأثير يتجلّى بطريقتين: من خلال البنية وعبر انتقال القيمة المترتبة عليها، وبهذا فإن الأقيسة تلعب دوراً هاماً في عملية الابتكار وعمليات البرهان معاً[1].

ومن وجهة النظر البرهانية، يجب أن يظل القياس في دخل حدود لا يتجاوزها إذا أريد به دعم فكرة معينة أو انطباع خاص وكثيرا ما تكون تنمية القياس تعزيزا لقيمته، غير أنّها قد تعرّض المتكلم لخطر الهجوم من قبل المتلقي بعبارة بسيطة لكنها قاتلة «القياس مع الفارق»[2].

والفكرة الثانية هي فكرة ربط الأبنية النحوية بحالات المجتمع وحركيته، وبهذا الصدد يشير «بيريلمان» إلى أنّ لغة بعض المجتمعات المتراتبة تعتمد على الحثّ والتحريض، وقواعدها ونحوها لهما طابع سحري مقدّس، بحيث يبدو أن الرموز اللّغوية لا تمثل الأشياء، بل تتحوّل هي ذاتها إلى أشياء؛ إذ تحتلّ مكانا محدّدا في سلّم القيم، وتسهم الشعائر من مستواها الخاص، بينما نجد اللّغة في المجتمعات الديمقراطية ملكاً لكل الناس، تتطوّر بحريّة تامة، ويتم تجسيدها وتثبيتها في المجتمعات التراتبية، بحيث تكتسب التعبيرات والصيغ طابعا شعائريا، إذ يتم تداولها في مناخ من الاتصال والخضوع الشامل، ومع ذلك يكفي أن لا تكون هذه الصيغ إجبارية وأن لا تسمح بنفس روح الاتصال لكي تتحوّل إلى مجرّد عبارة مصكوكة[3].

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 81.

2)- Treate de l'argumentation- P: 68.

3)- Ibid, P: 264.

وصفوة القول، إنّ هذه الملاحظات الفلسفية التي آثارهـــا «بيريلمـــان» حول اللّغة أعادت الاعتبار للبلاغة، وأسهمت بشكل فعّال في إثارة قضاياها الجوهرية، حيث استفادت البلاغة من معطيات المنطق الحديث وشارفت أفق علوم الاتصال الجديدة.

II-2- البلاغة البنيوية العامة:

تبلور هذا الاتجاه في عقد الستينات من هذا القرن في كتابات مجموعـــة من النقاد البنويّين من المدرسة الفرنسية والألمانية حتى أعلنتـــه جماعـــة «م» (Group-M-) في بحوثها المتتالية[1].

ويلاحظ الدارس أن هذا الاتجاه يتميّز بعدد من السمات، أبرزها قطيعته الفعلية مع التقاليد البلاغية القديمة، وغلبة الطابع غير التاريخي عليه، وارتباطه الوثيق بالتجربة الشكلية، واتخاذ مبادئها وسيلة لإضفاء الطـــابع العلمـــي، لا الإيديولوجي على بحوثه، بعد تغيير المنظور العام بانتصار البنيوية وما بعدها، خاصّة عندما قام علم اللّغة بدور العلم القائد، وتـــزعم في الثقافـــة العربيـــة المعاصرة الاتجاه المحدّد إلى التحليل التقني ممّا برزت معه «العلامـــة-Signe» باعتبارها نقطة البدء في استكشاف الرسالة طبقا للمفهوم المتداول في علـــوم الاتصال الحديثة[2].

وتبعا لذلك فقد اهتم أنصار هذا الاتجاه بتحليل علاقات الأجزاء الخمسة المعروفة في البلاغة وهي: الأغراض، والترتيب، والعبارة، والذاكرة، والفعـــل بنظائرها في النظام اللغوي الحديث، وذلك عن طريق التمييز بـــين عمليـــات

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 82.

2)- المرجع نفسه، ص: 82- 83.

التلفظ، والعناصر الثلاثة الباقية هي اللفظ ذاته، كما أن هناك من ربط مفهوم الغرض البلاغي بالمستوى الدلالي، ومفهوم الترتيب بالمستوى النحوي، وجعلوا العبارة قاصرة على المستويين الصوتي والصرفي[1].

ولقد عمدت البلاغة العامة إلى وصف العمليات البلاغية في جملتها على أسس جديدة، باعتبارها تحوّلات أو انحرافات، تتضمّن تصوّرات عديدة، وتميّز بين مجموعتين كبيرتين من هذه التحوّلات: إحداهما تتصل بجوهر المادّة والأخرى بعلاقاتها، فالأولى تعاني فيها الوحدات ذاتها من التحوّل، والثانية تظل الوحدات كما هي، ولا يمس التحوّل سوى علاقاتهما، وهم لذلك يصفونها بالطريقة التالية[2]:

II–2–1– العمليات الجوهرية:

إنّ هذه العمليات لا يمكن أن تتم إلاّ بشكلين؛ أحدهما حذف الوحدات، والثاني إضافة وحدات جديدة، وبفضل آليات التركيب، نجد أنّ أي تحوّل ظاهر يعود في نهاية المطاف إلى عمليات حذف أو إضافة لبعض الوحدات، ومن الممكن تصوّر عملية حذف مزدوجة؛ يتم فيها إجراء الحذف والإضافة معاً.

ولعلّ هذه العمليات تذكّرنا بقول الجرجاني في باب الحذف »...فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه، وحذف في الحال الذي ينبغي أن يحذف فيها، إلاّ وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى

1)– Del formalis ma a la neoretorica, P: 202.

– نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 83.

2)– بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 83.

إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به»[1].

والحذف كما يشير إلى ذلك الجرجاني لا يتم فقط كمقولة نحوية، بل يأتي لدواعي قولية معينة، ويتم كذلك الحذف في الموضع والحال الذي ينبغي فيه كي يؤدي المعاني التي تقتضيها الشروط التداولية (النفعية) حتى يحصل تأثير القول الذي فيه حذف إلى تحريك نفس السامع[2].

II-2-2- العمليات العلائقية:

يُعدّ هذا النوع من أبسط العمليات وذلك أنها تقتصر على تغيير النظام الأفقي للوحدات دون أن تؤدي إلى تعديل في طبيعتها، وهذا ينتج في الواقع نوعاً من «التناوب» أيّا كان النّمط الذي ينتهي إليه، فهو ينحصر في تغيير ترتيب النظام السياقي لسلسلة الكلام المنطوق أو المكتوب[3].

واعتمادا على هاتين المجموعتين ألفينا البلاغيين الجدد يقومون بتحليل مستويات التغيير على عدّة محاور؛ التغيير اللفظي، والتركيبي والدلالي، مركزين على العلاقات القائمة بينها وهم لذلك يرون أن التغيير اللفظي إنّما هو عملية تؤدّي إلى تعديل التدفق الصوتي أو الاسترسال للرسالة، أي تغيير شكل الرسالة من حيث إنها ذات مظهر صوتي أو خطي. وينجم هذا التعديل في التدفق الصوتي بتغيير حرف أو أكثر، الأمر الذي يجعلنا نفضل اندماجه في الوحدة الأعلى منه[4].

---

1)- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص: 153.

2)- إشكالات التواصل والحجاج، ص: 96.

3)- Rétorica General, Groupe U, Trad- Madrid, 1983, P: 91.

- نقلا عن: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 84.

4)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 84.

وهكذا، فإن تسلسل الأصوات دون أن يكون لأيّ منها فرصة الدخول في علامة لغوية، يعتبر تغييرا لفظيا لكنه لا يمكن تعريفه إلاّ من الخارج، قياسا على تسلسل صوتي آخر، يدخل بوضوح في وحدات أعلى ذات كيان قائم من قبل، ولهذا يظل من المهم أن تظهر هذه الوحدات العليا، وهي الكلمات المكونة من حروف ومقاطع.

وفي هذا السياق نجد البلاغيين يهتمون بالجانب الصوتي المنطوق والمكتوب لهذه الكلمات، باعتباره داخلا في الصورة التي يكونها المتكلم عن لغته، كما يوضح المنظور الذي يتّخذونه أساسا بالنسبة للجسم اللغوي وذلك باختيارهم لثلاثة مستويات متراتبة[1].

– أولها ما يطلق عليه «ما تحت اللّغوي» وهو مستوى الخواص الخلافية في اللّغة، والتي لا تشكل بذاتها تعبيراً مثل: الجهر، والهمس، والأنفي، واللثوي، والحلقي في الصوتيات والأشكال الكتابية للحروف المستقيمة والممدودة، وطابعها في الرسم وخواصها في أوّل كلمة أو وسطها أو آخرها وقابليتها للاتصال أو الانفصال وبقية تشكلاتها الخطية المنوعة.

– وثانيها ما يطلق عليه «المستوى الأولي» وهو المتعلق بالحروف ومجموعاتها التي تشكل عناصر صرفية للعلامات أو تشكل مقاطع تقوم بدورها في تكوين الكلمات.

وثالثها هو «المستوى المركب» وهو المستوى الخاص بالتراكيب أو مجموعات الكلمات والمتتاليات المتماسكة التي تكون بدورها جملا وفقرات تامّة.

1)– المرجع نفسه، ص: 84– 85.

ولكن هذا الطابع الطولي خاصّة، في المستويين الثاني والثالث لا يمكن تطبيقه إلاّ على الشعر؛ لأنّه يحدّد الموقع بدقّة تبعا لعملية النظم التي تفرض مكانا للوحدات، ممّا يجعله يتضمّن شفرة إضافية للّغة توجب عليها أشكالاً لا تكميلية يتوقعها المرسل إليه كما يلاحظ في التغيرات اللّفظية والتركيبية[1].

وهكذا، فإنه يمكننا معرفة أين تتم عملية الإضافة أو الحذف، وذلك بالاستعانة على الشعر.

ثم إنه إذا كان مستوى التغيير اللّفظي يحيل إلى الصوتيات والصرف فإنه يحيل كذلك إلى النحو عندما يتم التغيير التركيبي في الجمل. وعليه، فمن الصعب استبعاد جميع القيم الدلالية من مجال النحو، فعندما يضع النحاة مثلا مراتب مثل المبني للمعلوم مقابل المبني للمجهول أو مرتبة المفرد مقابل المثنى والجمع، فإن عليهم أن يأخذوا بعين الاعتبار جانب المعنى في تحليلاتهم، وإن كانوا لا يحتفظون له بنفس درجة الأولوية السابقة[2].

وخلاصة القول، إن النّحو يظل يحتل مكانا يسبح بين الصرف والمنطق والدّلالة.

وهكذا عندما يكتشف «جاكبسون» (Jackobson) «أيقونيا» (Iconique) يتعلق بالرسم البياني في الظواهر النحوية فإنه يفضي بنا إلى منطق بنية الجملة، وكما يقول فإن ترتيب الكلمات في معظم اللّغات المعروفة يستجيب لعوامل عدّة طبقا لمنطق المعنى، كما يستجيب لتتابع الأفعال طبقا

1)– Retorica general- Groupe- U- P: 97

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 85.

2)– Ibid P: 97

- نقلا عن نفس المرجع، نفس الصفحة.

لترتيب الأحداث الزمني، ويجعل الأولوية للفاعل على المفعول لأنه بطل الرسالة إلى غير ذلك من المراتب المحدّدة[1].

وهكذا نلاحظ أن الخطاب العادي لا يُعنى كثيرا بخلق توازنات منتظمة، فهو لا يبدأ في تشكيل هذه التوازنات إلاّ عندما يبتعد عن الاستعمال المتوسط، ويشرع في «الترتيب الجيّد» للكلمات، وعندئذ يهدف إلى تحقيق غرض فعّال وغريب عن الرسالة التي تتوخّى مجرّد التوصيل، لافتا الانتباه إليها في ذاتها، ومبرزا تميّزها التعبيري، ممّا يجعل إجراءات الاتساق الإيقاعي أشكالا بلاغية بلا ريب[2].

وإلى جانب التحولات اللفظية والتركيبة التي رصدتها البلاغة البنيوية العامّة، هناك التغيّرات الدلالية التي وصفت بأنّها الشكل الذي يؤدّي إلى إحلال وحدة دلالية محل أخرى، هذه الوحدات التي تتجلى عادة في كلمات ومن خلال كلمات.

II-2-3- طبيعة الاستجابة الجمالية للنص ووظيفته البلاغية من وجهة نظر البلاغة الجديدة:

يعود سبب تعقيد الظاهرة الأدبية حسب الباحثين إلى فكرتي الأثر والقيمة فيها، ومن هنا يمكننا التعرف على التأثير الجمالي باعتباره حالة عاطفية تثيرها الرسالة لدى المتلقي الخاص وتتنوع فاعليتها طبقا لبعض العوامل التي يتصل بعضها بالمتلقي ذاته[3].

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 85- 86.

2)- المرجع نفسه، ص: 88.

3)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 95.

ومن هذا المنظور، فإن القيمة التي تعزى إلى النّص ليست بالضرورة شيئاً كامنا فيه، بل يتمثل معظمها في استجابة القارئ أو السامع له؛ إذ أنّ هـــذا الأخير لا يكتفي بأن يتلقّى بيانا جماليا محسوسا، لكنه يتأثر ببعض المـــثيرات وهذا التأثر في طبيعته تقييم.

يستنتج ممّا سبق أنّ فكرة التأثير ذات طابع سيكولوجي في المقام الأوّل عندما نتحدّث عن الأعمال الأدبية وكذلك فكرة القيمة، لكنها تتزحزح إلى المرتبة الثانية من وجهة النظر المعرفية[1].

ولقد استطاع «ريفاتير» (Riffaterre- M) أن يميّز في إجراءاته التحليلية بوضوح بين المثيرات والأحكام الناجمة عنها، إذ أن الخصائص الجمالية الـــتي تعزى لبعض الوقائع لابدّ من عزلها عن ردود الفعل السيكولوجية التي تـــثير، لأنها بالنسبة للدارس اللّغوي مجرّد مؤشرات بغض النظر عن قيمتها الإيجابيـــة أو السلبية[2].

وانطلاقا من هذا الرأي، فإنّ الأثر الرئيس للمجاز عندهم إنّمـــا هـــو إطلاق عمليات التلقي الأدبية للنص الذي يدخل فيه بمعناهـــا الواســـع، إذ يكشف حينئذ عن الوظيفة الشعرية التي تحدّث عنها «جاكوســـون» والـــتي يفضل هؤلاء الباحثون أن يسمّوها بلاغية، هذه الوظيفة التي تركّـــز علـــى الرسالة، بما هي رسالة في دوالها ومدلولاتها، وتبرز بشكل مجـــسّم الجانـــب الملموس للعاملات اللّغوية[3].

1)- المرجع نفسه، ص: 96.

2)- علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، جدّة، 1988، ص: 248.

3)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 96.

وبعد هذا، فقد لاحظ «تودوروف» أنّ الخاصية الوحيدة المشتركة بين جميع الأشكال البلاغية أنها كلّها «مجوّفة Opaque» أي أنّها تنـــزع إلى أن تجعلنا نتلقى الخطاب، ذاته وليس دلالته فحسب.

هذه، إذاً بعض مبادئ الاتجاه البنيوي للبلاغة الجديدة في سياق عـــرض لبعض النظريات.

III- التحليل التداولي للخطاب:

إنّ المهمة الأولى حسب أنصار هذا الاتّجاه لتحديـــد علاقـــة البلاغـــة بالتداولية (Pragmatique) هي تعريف مجال كلّ منهما خاصّـــة أنّ هنـــاك بعض التعريفات الموسّعة المريحة التي تساعد على التحديد العلمي الدقيق وذلك مثل من يعرفون البلاغة بأنّها «فن القول بشكل عام» أو «فن الوصـــول إلى تعديل موقف المستمع أو القارئ» ممّا يجعلها مجرّد أداة نفعية ذرائعية[1].

يقول الباحث الألماني «لوسبرج» (Laus berg- H): «إنّ البلاغة نظام له بنية من الأشكال التصوّرية والبلاغية، يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدّد»[2].

أمّا «ليتش» (Leitch, V) فإنّه يرى بأنّ البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ أنّها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع، بحيث يحلاّن إشـــكالية علاقتـــهما مستخدمين وسائل محدّدة للتأثير على بعضهما، ولذلك فإنّ البلاغة والتداولية البراجماتية تتّفقان في اعتمادهما على اللّغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقـــي،

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 97.

2)- Del Formalis ma a la neoretorica, P: 196.

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 97.